

حقوق الإنسان
3

الغفلة من التغيير

رسوم:

أحمد الصوابي

تأليف:

محمد الغزوي

المعهد العربي لحقوق الإنسان

منظمة العفو الدولية - فرع تونس

1999

نَظَرَ الخَفَاشِ الصَّغِيرِ حَوْلَهُ وَصَاحَ فِي فَرَحٍ :

- أهُ مَا أَجْمَلَ الأَرْضَ -

لَمْ يَمِضْ عَلَى مِيلَادِهِ غَيْرَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، لَكِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْهِ، وَنَفَضَ جَنَاحَيْهِ وَخَطَا خُطُواتَهُ الأُولَى :

- هَذِهِ الأَرْضُ إِذَنْ !! زُهُورٌ وَفِرَاشَاتٌ وَبَجَعٌ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارٌ، أهُ مَا أَسْعَدَنِي بِوِلَادَتِي فَوْقَ

هَذَا الكَوْكَبِ الجَمِيلِ، أُرِيدُ أَنْ أَطِيرَ الآنَ حَتَّى أَكْتَشِفَ كُلَّ أَقَالِيمِهِ وَمَمَالِكِهِ.

نَفَضَ الخَفَاشُ جَنَاحَيْهِ ثَانِيَةً ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ يَطِيرَ لَكِنَّهُ سَرَّعَانَ مَا سَقَطَ فَصَاحَ :

- أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ كَبِيرًا، مَا أَتَعَسَ الطُّيُورَ حِينَ تَكُونُ صَغِيرَةً.

خَرَجَتْ أُمُّ الخَفَاشِ مِنَ المَغَارَةِ وَأَحْتَضَنْتْ ابْنَهَا الصَّغِيرَ وَهَمَسَتْ فِي أُذُنِهِ :

- كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى الخُرُوجِ وَالشَّمْسُ لَمْ تَغِبْ بَعْدُ؟

رَفَعَ الخَفَاشُ جَنَاحَيْهِ وَسَأَلَ :

- وَلَكِنْ مَتَى يَكُونُ الخُرُوجُ يَا أُمَّاهُ؟

أَجَابَتْ الأُمُّ :

- نَحْنُ لَا نَخْرُجُ إِلا لَيْلًا.

ضَحِكَ الخُفَّاشُ الصَّغِيرُ وَقَالَ :

- وَكَيْفَ لَنَا أَنْ نَرَى الزُّهُورَ وَالبَّجَعَاتِ وَالأَنْهَارَ ؟

حَمَلَتِ الأُمُّ طِفْلَهَا وَهِيَ تَرُدُّدًا :

- حِينَ تَكْبُرُ يَا وَلَدِي سَتَعَلِّمُ لِمَاذَا نُؤَثِّرُ الخُرُوجَ لَيْلًا.

لَمْ يَفْهَمْ الخُفَّاشُ كَلَامَ أُمِّهِ لَكِنَّهُ قَالَ :

- لَنْ أَخْرُجَ إِلاَّ حِينَ تُشْرِقُ الشَّمْسُ !! أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الأَرْضَ وَالنَّاسَ وَالأَنْهَارَ وَالبِحَارَ.



لَمْ تَمْضِ عَلَى مِيلَادِ الْخَفَّاشِ غَيْرَ أَسَابِيعٍ قَلِيلَةٍ لَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ - مَعَ ذَلِكَ - أَنْ يُرْسَلَ
جَنَاحِيهِ فِي الْفِضَاءِ وَيَطِيرَ. لَمْ يَتَّعِدْ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، عَنِ مَغَارَةِ الْجَبَلِ، إِلَّا أَشْبَارًا
مَعْدُودَةً لَكِنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِيِ عَبَرَ النَّهْرَ، وَكَتَشَفَ الْمَدِينَةَ الْمَجَاوِرَةَ وَرَأَى
الْأَطْفَالَ فِي الْأَرْقَةِ يَلْعَبُونَ، وَالنَّوَارِسَ فِي الْبَحْرِ تَضْرِبُ بِأَجْنَحَتِهَا الْأَمْوَاجَ،
وَالْخَيُْولَ فِي الْحُقُولِ تَسْحَبُ الْعَرَبَاتِ الْمَلُونَةَ.

قَالَ الْخَفَّاشُ:

- وَلَكِنْ لِمَاذَا لَا تُرِيدُ أُمِّي الْخُرُوجَ نَهَارًا... لِمَاذَا؟

عَادَ الْخَفَّاشُ إِلَى مَغَارَةِ الْجَبَلِ وَقَدْ عَقَدَ الْعِزْمَ عَلَى زِيَارَةِ الْأَرْضِ، كُلِّ الْأَرْضِ،
وَمُشَاهَدَةِ مَمَالِكِهَا الْبَعِيدَةِ، وَجَزْرِهَا الْقَصِيَّةِ.

* * *

حِينَ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ فَتَحَ الْخَفَّاشُ عَيْنَيْهِ فَرَأَى أُمَّهُ نَائِمَةً قُرْبَهُ، فَطَبَعَ عَلَى جَبِينِهَا قُبْلَةً وَهَمَسَ:

- عَفْوِكَ يَا أُمَّاهُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الْأَرْضَ، لَكِنْ ثَقِي أَنْ عَيْبَتِي لَنْ تَطُولَ.

خَرَجَ الخَفَّاشُ الصَّغِيرُ مِنْ مَغَارَةِ الجَبَلِ وَأَسَابَ فِي الفَضَاءِ :

- مَا أَجْمَلَ الأَرْضَ : حُقُولٌ مُنْبَسِطَةٌ، وَيَبَابِعٌ دَافِقَةٌ وَفَرَاشَاتٌ مُلَوَّنَةٌ... سَابِقِي أُحُومٌ فَوْقَ هَذَا الكَوْكَبِ

أَمَّا عَيْنِي بِجَمَالِهِ الأَخْأَذِ.





كَانَ الْخَفَّاشُ يُطِيرُ مَبْتَهَجًا حِينَ أَبْصَرَ فِي الْأُفُقِ الْبَعِيدِ مَدِينَةً كَبِيرَةً:



- سَأَذُهِبُ إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَسَأَجِدُ فِيهَا أَطْفَالَ كَثِيرِينَ، سَأَحُطُّ فَوْقَ أَكْفُهُمْ...

وَأَصِفُ لَهُمْ الزُّهُورَ الَّتِي رَأَيْتُ، وَالْفَرَاشَاتِ الَّتِي شَاهَدْتُ.

طَوَى الْخَفَاشُ جَنَاحَيْهِ ثُمَّ فَتَحَهُمَا، وَطَارَ حَتَّى وَصَلَ الْمَدِينَةَ... حَلَقَ حَوْلَهَا ثُمَّ حَلَقَ:

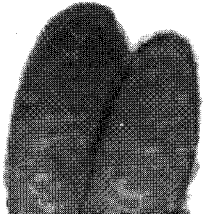
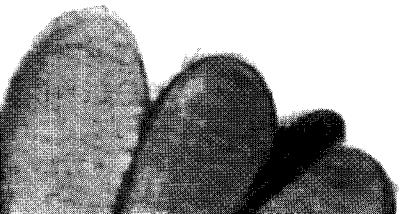
- إِنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ مُفْقَرَةٌ، لَا سُكَّانَ فِيهَا وَلَا أَطْفَالَ.

أَمَعِنَ النَّظَرَ فَرَأَى مَنَازِلَ مُحْتَرِقَةً، وَدَكَكَيْنِ خَرِبَةٍ،

وَمَدَارِسَ مَهْجُورَةً!!

- مَا الَّذِي حَدَّثَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ؟

أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ سِرَّ هَذِهِ الْمَدِينَةِ.





أَبْصَرَ فَوْقَ شَجَرَةٍ مُّحَطَّمَةٍ خَطَافًا هَرَمًا، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَسَأَلَهُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ :

- سَيِّدِي الْخَطَافُ.. أَيْنَ سَكَانَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ؟

رَفَعَ الْخَطَافُ رَأْسَهُ وَقَالَ :

- أَلَمْ يَبْلُغْكَ نَبَأُ الْحَرْبِ يَا وَلَدِي؟

ارْتَجَفَ الْخَطَافُ وَسَأَلَ ثَانِيَةً :

- وَلَكِنْ مَا هِيَ الْحَرْبُ يَا أَبْت؟

ضَحِكَ الْخَطَافُ ضَحْكَةً حَزِينَةً وَقَالَ :

- الْحَرْبُ هِيَ أَنْ يَتَقَاتَلَ الْبَشَرُ، وَيَسْفِكَ بَعْضُهُمْ دِمَاءَ الْبَعْضِ...

أَحْسَ الْخَطَافُ بِجَنَاحِيهِ يَتَجَمَّدَانِ فَجَاءَ :

- وَلَكِنْ لِمَاذَا يَتَقَاتَلُونَ يَا سَيِّدِي.

مَسَحَ الْخَطَافُ جَبِينَهُ بِأَحَدِ جَنَاحِيهِ وَقَالَ :

- لِأَنَّهُمْ مَا زَالُوا أَعْيَاءً...

رَفَعَ الخُطَّافُ رَأْسَهُ وَسَأَلَ الخُطَّافَ :

- وَلَكِنْ يَا أَبْتَ أَيْنَ أَجِدُ أَطْفَالَ هَذِهِ المَدِينَةِ ؟

أَشَارَ الخُطَّافُ بِجَنَاحِهِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ وَقَالَ :

- هُنَاكَ يَا وَلَدِي تَجِدُ خِيَامَهُمْ .



ضَرَبَ الخُفَّاشُ الهَوَاءَ بِجَنَاحِيهِ وَطَارَ.

«صَدَقَ الخُطُوفُ، هَاهُمْ يَتَجَمَّعُونَ أَمَامَ خِيَامِهِمْ : أَقْدَامُهُمْ حَافِيَةٌ وَأَثْوَابُهُمْ رِيَّةٌ.»

- مِنْ تَجَرَّأَ عَلَى تَشْرِيدِهِمْ.. مِنْ ؟ -

كَانَ الخُفَّاشُ يَحْدِثُ نَفْسَهُ حِينَ سَمِعَ الأَطْفَالَ يَصِيحُونَ :

- خُفَّاشٌ يَطِيرُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ !! -

اقْتَرَبَ الخُفَّاشُ مِنْ أَحَدِهِمْ ثُمَّ حَطَّ عَلَى كَتِفِهِ، فَتَحَلَّقَ حَوْلَهُ أَطْفَالٌ كَثِيرُونَ

وَأَخَذُوا يُدَاعِبُونَ جَنَاحِيهِ...

قَالَ الطُّفْلُ الأَوَّلُ :

- يَا الخُفَّاشَ الجمِيلَ.. لَقَدْ جَاءَ مِنْ جِهَةِ العَرَبِ، لِأَنََّّهُ كَانَ يَسْكُنُ مَدِينَتَنَا...

قَالَ الثَّانِي :

- كَانَ فِي مَنْزِلِنَا عَدَدٌ مِنَ الخُفَّافِيشِ تَقْضِي النَّهَارَ مُعَلَّقَةً فِي السَّفْفِ.

قَالَ الثَّالِثُ :

- لَوْ كُنَّا خُفَّافِيشَ مِثْلَهُ لَعُدْنَا إِلَى مَدِينَتِنَا !

قَالَ الرَّابِعُ :

- لَوْ رُمِّمْنَا الْعَوْدَةَ لِأَطْلَقَ عَلَيْنَا الْعَدُوَّ النَّارَ.

أَحْسَ الْخُفَّاشُ بِالِدُمُوعِ تَمَلُّأَ عَيْنَيْهِ فَأَخْفَى رَأْسَهُ بَيْنَ جَنَاحَيْهِ

قَالَ أَحَدُ الْأَطْفَالِ :

- لِأَبْدُ أَنَّهُ يُرِيدُ الْعَوْدَةَ إِلَى مَدِينَتِنَا...

نَشَرَ الْخُفَّاشُ جَنَاحَيْهِ ثُمَّ ارْتَفَعَ عَالِيًا

صَاحَ أَحَدُ الْأَطْفَالِ :

- يَا أَيُّهَا الْخُفَّاشُ أَفَرَى مَدِينَتَنَا السَّلَامَ !!



«كَيْفَ يَتَحَمَّلُ الْأَطْفَالُ الْحَيَاةَ فِي هَذِهِ الْخِيَامِ الْبَالِيَةِ، كَيْفَ يَقَاوِمُونَ لَيَالِي الشِّتَاءِ الْبَارِدَةِ...»

لَوْ كُنْتُ أَقْدِرُ عَلَى احْتِضَانِهِمْ لَدَثَرْتُهُمْ بِجَنَاحِي».

ظَلَّ الْخَفَاشُ يَنْسَابُ بَيْنَ الْغَيُومِ سَاعَاتٍ حَتَّى أَبْصَرَ فِي الْبَعِيدِ مَدِينَةَ كَبِيرَةً.

قَالَ لِأَبْدٍ أَنِّي وَاجِدُ أَطْفَالَ سَعْدَاءٍ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَحَانَتْ مِنْهُ انْتِفَاةٌ فَرَأَى فِي حَدِيقَةِ

الْمَدِينَةِ أَطْفَالَ يَلْعَبُونَ «أَهْ مَا أَجْمَلُ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ، وَمَا أَجْمَلُ ضَحَكَاتِهِمْ».

انْحَدَرَ الْخَفَاشُ شَيْئًا فَشَيْئًا وَحَطَّ فَوْقَ شَجَرَةٍ وَظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ يَلْعَبُونَ... فَجَاءَتْ

أَبْصَرَ طِفْلًا يَنْسَحِبُ مِنْ حَلَقَةِ الْأَطْفَالِ.. وَبِنْتِي رُكْنَا قِصِيًّا وَيَنْخَرِطُ فِي بَكَاءٍ طَوِيلٍ..

- مَا الَّذِي أَبْكِي هَذَا الطِّفْلَ؟ -

التَّحَقَّقْ بِهِ الْأَطْفَالُ

هَمْسَ الْأَوَّلِ :

- لَقَدْ تَذَكَّرْتُ أَبَاهُ... الْمَسْكِينُ... أَبُوهُ ذَهَبَ فِي رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ...

هَمْسَ الثَّانِي :

- الْمَسْكِينُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاهُ سَجِينٌ مِنْذُ سِنِينَ عَدِيدَةٍ.

سَأَلَ التَّالِثُ هَامِسًا :

- وَلَكِنْ لِمَاذَا سَجِنُ ؟

هَمَسَ الرَّابِعُ :

- لِأَنَّهُ لَمْ يَنْحَنِ أَمَامَ مُوَكِّبِ الْمَلِكِ.

تَسَاءَلَ الْخَفَّاشُ :

- كَيْفَ لِهَذَا الطِّفْلِ أَنْ يَتَحَمَّلَ غِيَابَ أَبِيهِ ؟ مَنْ بَعْدَهُ يَمَشُّ شَعْرَهُ ؟ مَنْ يَرَوِي لَهُ قَبْلَ النَّوْمِ حِكَايَةً ؟

ارْتَفَعَ الْخَفَّاشُ عَالِيًا وَقَالَ :

- لَنْ أُوَاصِلَ رِحْلَتِي... لَقَدْ صَدَقْتَ أُمِّي، لَنْ أَخْرُجَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ إِلَّا لَيْلًا حَتَّى لَا أَرَى

أَطْفَالَ أَشَقِيَاءٍ ...

* * *

قَالَتْ أُمُّ الْخَفَّاشِ لِابْنِهَا :

- لَا تَحْزَنْ يَا وَلَدِي... فَقَدْ قَالَتْ لِي الْعِرَاقَةُ يَوْمًا أَنْ هُوَ لَأَنَّ الْأَطْفَالَ هُمْ الَّذِينَ سَيَجْعَلُونَ الْعَالَمَ جَمِيلاً.

ضَحِكَ الْخَفَّاشُ وَالتَّقَى بِجِسْمِهِ فِي حُضْنِ أُمِّهِ وَنَامَ.